

الرحمة

عناصر الموضوع

١١٦	مفهوم الرحمة
١١٧	الرحمة في الاستعمال القرآني
١١٩	الألفاظ ذات الصلة
١٢٠	الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى
١٣٨	من وصف بالرحمة في القرآن
١٤٩	موجبات رحمة الله تعالى
١٥٩	أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله
١٦٢	من مظاهر رحمة الله وآثارها
١٧٢	موقف الخلق من رحمة الله

مفهوم الرحمة

أولاً: المعنى اللغوي:

تدور مادة (رح م) حول الرقة، والعطف. قال ابن فارس: «الراء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرافة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقق له وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى»^(١). وقال ابن منظور رحمه الله: «الرحمة: الرقة والتعطف، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه»^(٢).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رحمه الله: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلاناً»^(٣). وقال الكفوي رحمه الله: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالباً لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»^(٤).

وعرفها بعض الباحثين بقوله: «رقة يجدها المخلوق في قلبه تحمله على العطف والإحسان إلى سواه ومواساته، وتخفيف آلامه»^(٥).

والرحمة هي السبب الذي بين الله وبين عباده؛ بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وبها أنعم عليهم^(٦).

فالمعنى الاصطلاحي للرحمة لا يبعد عن معناه اللغوي، إلا أنه خص برحمة الله لعباده، ولا ينافي معنى الرحمة أن يكون في بعض التكاليف مشقة.

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٣٩٨.

(٢) لسان العرب ١٢/ ٢٣١.

(٣) المفردات ص ١٩١.

(٤) الكليات ص ٤٧١.

(٥) الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص ٢١-٢٢.

(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥.

الرحمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رحم) في القرآن الكريم (٣٣٩) مرة^(١).
والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣]
الفعل المضارع	١٥	﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ [العنكبوت: ٢١]
المصدر	١١٦	﴿رَبَّنَا لَا تُفِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]
اسم الفاعل	٦	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤]
صيغة المبالغة	١٧٢	﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الفاتحة: ٣]
اسم التفضيل	٤	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]
الاسم	١٣	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

وأطلقت الرحمة في الاستعمال القرآني على عدة أمور^(٢):

الأول: الإسلام والإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: في دينه الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالَاتِ هُمْ فِي رَحْمَةِ رَبِّهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٧]، أي: في جنته.

الثالث: المطر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْزِلُ بِرَحْمَتِهِ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٣٠٤-٣٠٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٣٩-٤٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٢٤-٢٢٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٣١-٣٣٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٢٢٧-٢٢٨.

[الأعراف: ٥٧]، أي: المطر.

الرابع: النبوة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْعَدَهُ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، أي: مفاتيح النبوة.

الخامس: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، أي: القرآن.

السادس: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَا تُمْسِكُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي: رزق ربي.

السابع: النصر والفتح: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، أي: النصر والفتح.

الثامن: العافية: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَقْرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ﴾ [الزمر: ٣٨]، أي: عافية.

التاسع: المودة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: مودة.

العاشر: التوفيق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ٨٣]، أي: توفيقه.

الحادي عشر: العصمة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمْتُ﴾ [يوسف: ٥٣].

الألفاظ ذات الصلة

١ الرأفة:

الرأفة لغة:

أصل مادة (ر أ ف) تدل على رقة ورحمة، وهي الرأفة^(١).

الرأفة اصطلاحًا:

قال الكفوي: «الرأفة مبالغة في رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضرر»^(٢).

الصلة بين الرأفة والرحمة:

الرأفة أخص من الرحمة؛ فالرأفة: أشد الرحمة^(٣)، أو الرأفة: أعلى معاني الرحمة^(٤)، أو الرأفة: ألطف الرحمة وأرقها^(٥).

قال الزجاج رحمه الله: «الرأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»^(٦).

٢ القسوة:

القسوة لغة:

القسوة: الصلابة في كل شيء، والقسوة في القلب تعني ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه^(٧).

القسوة اصطلاحًا:

قال الراغب: «القسوة: غلظ القلب»^(٨).

الصلة بين القسوة والرحمة:

العلاقة بينهما التضاد، فالقسوة ضد الرحمة.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٧١ / ٢.

(٢) الكليات ص ٣٧٨.

(٣) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ٥٩ / ١، تفسير القرآن، السمعاني ٣٧٩ / ٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨ / ٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢٢١ / ١.

(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٥١٨ / ١، تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص ٤٢٨.

(٦) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦٢.

(٧) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٨٠ / ١٥.

(٨) المفردات ص ٦٧١.

الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى

الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، وإضافتها إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الأخرى: رحمة مخلوقة، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية، وإضافتها إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلى خالقه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وكما جاء في الحديث: (فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي) (١) (٢).

ورحمة الله وردت في القرآن الكريم صفة له سبحانه، واشتق منها اسمان عظيمان هما الرحمن والرحيم، وسأعرض لما تقدم من خلال النقاط الآتية:

أولاً: ورود الرحمة مفردة صفة لله تعالى:

جاءت رحمة الله في مواضع من القرآن الكريم موصوفة بصفة معينة، ككتابة الله لها على نفسه وكالسعة، والقرب من المحسنين، وسأعرض لهذه الأوصاف والدلالات من خلال الآتي:

١. الرحمة مما كتبه الله سبحانه على نفسه.

ليس لأحد أن يلزم الله شيئاً، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنى إلزامه أن يخبر به، ووعدته جل وعلا صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد (٣).

ومما أخبر الله به سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة، أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً؛ وهذه الكتابة كونية قدرية لم يوجبها عليه أحد (٤).

قال ابن حجر رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ليس معناه أن ذلك لازم له؛ لأنه لا أمر له، ولا ناهي يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب،

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/٢١٨٥، رقم ٢٨٤٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/٤٠٨.

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ١/٣٤٠.
(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الفوزان ص ٣٥.

وهو لا يخلف الميعاد»^(١).

وقد ورد إخبار الله سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة في موضعين من سورة الأنعام:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبُكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢].

بين تعالى كمال إلهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية، ثم أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾^(٢).

ففضى أنه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا منه تعالى استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة^(٣).

و﴿الرَّحْمَةُ﴾ هنا الظاهر أنها عامة، فتعم المحسن والمسيء في الدنيا، وهي عبارة عن الاتصال بهم والإحسان إليهم، ولم يذكر متعلق الرحمة لمن هي فتعم^(٤).

قال ابن سعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾، أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتديره، وهو

تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلّقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم»^(٥).

وقد أورد العلامة ابن عاشور رحمه الله عدة معاني بديعة في وقوع جملة ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ معترضة، حيث قال: «وفي هذا الاعتراض معان: أحدها: أن ما بعده لما كان مشعراً بإنذار بوعيد قدّم له التذكير بأنّه رحيم بعباده، عساهم يتوبون ويقبلون عن عنادهم، على نحو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً أَوْ يَظْهَرْ ثَمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِ ذُنُوبِهِ وَأَصْلَحَ فَاِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والشرك بالله أعظم سوء وأشدّ تلبساً بجهالة، والثاني: أن الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم ملكه. فالكاfer يقول: لو كان ما تقولون صدقاً لعجل لنا العذاب، والمؤمن يستبطيء تأخير عقابهم، فكان قوله: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ جواباً لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥١.

(١) فتح الباري ١٣/٤١٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/١٣٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/٢٧٣.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/٨٦.

فقوله: ﴿أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها^(٣).

والتوبة لا بد فيها من ترك الذنوب، والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك كله ﴿فَإِنَّهُ عَفْوَ رَبِّمْ﴾ يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به^(٤).

وقريب من هذه الآية^(٥) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

فمدلول هذه الآية أن الله ليس عليه حق بقبول توبة أحد من المذنبين، وليس الله براجع لأحد منهم إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يزاولون المعاصي عن جهل منهم، وهم من عذاب ربهم مشفقون، فيتوبون من ذنوبهم ويراجعون طاعة الله التي ترضيه، ويلتزمون الاستغفار والندم على ما فات

رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة مؤقتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالين، والثالث: أن ما في قوله: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ من التمهيد لما في جملة ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ من الوعيد والوعد. ذكرت رحمة الله تعريضاً ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين^(١).

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمْتُ عَلَيْكُمْ كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفْوَ رَبِّمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

جاءت هذه الآية إرشاداً من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن فريق من الناس، وهم الذين يجيئون الرسول أنا بعد أن مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرسالة، فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر الله ورسوله^(٢).

ثم بين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقال: ﴿كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ عَفْوَ رَبِّمْ﴾،

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥٧/٧، العذب النمير، الشنيطي ٣٤١/١.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥٨.

(٥) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ١٣٩/١.

(١) التحرير والتنوير ١٥١/٧.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٣٤٧/٧.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ
بَعْدِكُمْ مَنْ يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ
قَوْمٍ **آخَرِينَ** ﴿[الأنعام: ١٣٣]

الله سبحانه هو الغني: في ذاته وصفاته
وأفعاله وأحكامه، الغني عن عباده والكل
مفتقر إليه؛ فلا ينفعه إيمان المؤمنين، ولا
طاعة الطائعين، كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّاسُ
أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
[فاطر: ١٥].

كما لا يضره كفر الكافرين، أو معصية
العاصين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ
وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾
[إبراهيم: ٨] (٤).

وفي الحديث القدسي، الثابت عن النبي
صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه،
أن الله جل وعلا يقول: (يا عبادي لو أن
أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على
أنتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في
ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم
وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل
منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) (٥).

والنكتة في الآية: أن الله بما قدّم قبل
هذه الآية من آيات أمر ونهي، ويبين ما

(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن
الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلوة
والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم
٢٥٧٧، عن أبي ذر رضي الله عنه.

عازمين على ترك العودة إليه (١).

ومما يجدر الإشارة إليه في ختام الكلام
على الآيتين الكريمتين أن ما أخبر الله من
أنه سبحانه بأنه كتب على نفسه الرحمة هو
الذي دلت عليه السنة، فقد ثبت عن النبي
صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن الله
جل وعلا كتب في كتاب فهو عنده فوق
عرشه: (إن رحمتي غلبت غضبي) (٢).

وهذا المعنى هو الذي دلت عليه آيات
أخرى من كتاب الله، وهو الذي سيكون عنه
الحديث في الفقرة الآتية.

٢. سبق رحمة الله غضبه.

بسط الله سبحانه على عباده رحمته
وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب
على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن
العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح
لجميع العباد أبواب الرحمة (٣).
وقد جاء هذا المعنى في عدة آيات من
كتاب الله تعالى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن
الدوسري ٥/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء
الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو
الذي يبدأ الخلق ثم يعيده)، ٣/ ١١٦٦، رقم
٣٠٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة،
باب في سعة رحمة الله تعالى، ٤/ ٢١٠٧،
رقم ٢٧٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥١.

يدخل الجنة وما يدخل النار، ثم نبه خلقه، فكانه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني أمركم وأنهاكم لأجل أن أجر بذلك لنفسي نفعاً أو أصرف عنها ضرراً، لا، أنا الغني بذاتي الغنى المطلق، وإنما النفع لكم لا لي^(١).

ثم تليت هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾ فأردف الاستغناء بالتفضل وهذا أجمل تناسق^(٢)، والوصف بذی الرحمة يساوي وصف الرحيم؛ لأن ذو تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه^(٣)، وقوله: ﴿ذُو الرِّحْمَةِ﴾، أي: أنه صاحب الرحمة وحده، فهو الرحيم رحمة مطلقة بعباده، ورحمة غيره رحمة نسبية، تليق بالمخلوقات، أما الله تعالى فرحمته واسعة، وسعت كل شيء، خلق الكون والناس برحمته، وخلق العقلاء وكفلهم برحمته، وأنزل من السحاب ماءً مدراراً برحمته، وخلق من الماء كل شيء حي برحمته، وجعل الأرض مهاداً والجبـال أوتاداً برحمته، وخلق الموت والحياة برحمته، وخلق البعث والنشور برحمته، وأنشأ السمع والأبصار والأفئدة برحمته^(٤). والمقصود من الوصف بذی الرحمة،

تمهيد لمعنى الإمهال الذي في قوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: فلا يقولن أحد لماذا لم يذهب هؤلاء المكذبين، أي: أنه لرحمته أمهلهم إعداراً لهم^(٥)؛ فلو شاء لعجل لهم العقاب وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلك أسلافهم الذين خرجوا من أصلابهم، لكنه تعالى يمهلهم لعلهم يرجعون، ويؤخرهم فعماسهم يتوبون^(٦).

ومن الآيات الدالة على سبق رحمة الله غضبه قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ الْغَفُورُ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذْهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ [الكهف: ٥٨].

الله واسع المغفرة، يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة^(٧). وفي معنى هذه الآية وردت آيات

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٦) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.

(١) انظر: العذب النمير، الشنيطي ٢/ ٣٠٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٥-٣٥٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٥٧.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٧٩.

مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم، إمهالاً للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم، ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلمهم يشكرون^(٥).

ومن استمر منهم ﴿لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجْذُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلاً﴾ وهو يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل بأيدي المؤمنين في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه^(٦)، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ [مريم: ٧٥].

أي: فليهمله الرحمن إمهالاً فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿فَتَلَوْتُمْ بِمِصْرَتِكُمْ أَلْفَ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر^(٧).

وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم

كثيرة^(١)، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

فإنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حلیم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أرادته^(٢).

ذكر الله تعالى الكفار بالصفات الموجبة للخزي والخذلان^(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَلِئِنْ مَاءٌ قَدَمْتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

ولما كان هذا مقتضياً لأخذهم أتبعه بقوله^(٤): ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ جرياً على عادة القرآن في تعقيب التهريب بالترغيب والعكس؛ فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة؛ لعلهم يتفكرون في

(٥) انظر: التحرير والتنوير ٣٥٦/١٥.

(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص ١٠٦.

(٧) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/٤٥٠.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/١٩٣.

(٢) المصدر السابق ٣/٣٤٨.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/٤٧٦.

(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/٤٨٤.

ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه^(١)؛ ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ أَمْثَلُهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وهذا استشهاد على ما فعل بقریش من تعيين الموعد؛ ليتنبهوا لذلك، ولا يغتروا بتأخر العذاب^(٢).

٣. سعة رحمة الله.

الله سبحانه واسع الرحمة، له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة^(٣).

وهذه الرحمة الواسعة التي عمت البر والفاجر، وجميع المخلوقات، دلّ عليها عدة آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

جمع جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛

لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر^(٤)، والله سبحانه قرن في عدة آيات من كتابه بين الترغيب في رحمته، والترهيب من عذابه، كقوله: ﴿يَنْتَهِ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٥) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ^(٦) [الحجر: ٤٩-٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: فإن كذبتك مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم^(٥)، فقل: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفره بالعقوبة، ولا من عصاه بالنقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمةً منه بكلا الفريقين^(٦).

فالله سبحانه أمهلهم، وأغدق عليهم نعمه، وأعطاهم العافية والإمهال، وهم يكذبون رسله، ويرتكبون مساخطه، ويتمردون عليه، فسبحانه ما أرحمه^(٧)!

إلا أنه سبحانه مع سعة رحمته؛ فإن سطوته وعذابه لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين، فقال: ﴿وَلَا يُرْدُ بَأْسُهُ عَنِ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٣١/٥.

(٣) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي ص ١١٦.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/٧٥.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٣٥٧.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/٢٠٦.

(٧) انظر: العذب النмир، الشنقيطي ٢/٤٠٧.

أَقْوَمُ الْمُتَجَرِّمِينَ^(١)

وقرن سبحانه بين سعة رحمته وشدة بأسه؛ ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله، هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه^(٢).

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى عن حملة العرش ومن حوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وسعتها عموم تعلقها بكل شيء؛ كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم^(٣). فما من موجود في الدنيا إلا وقد نالته قسمة من رحمة الله، سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان^(٤)؛ لأن الله قرن الرحمة مع العلم، فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضًا؛ لكن رحمته للكافر رحمة جسدية

بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك، أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية^(٥).

وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنه واسع الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كل شيء^(٦).

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهذه الآية قال عنها ابن كثير رحمه الله: «آية عظيمة الشمول والعموم؛ كقوله إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا» [غافر: ٧]^(٧).

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه^(٨)، فالعموم في

(٥) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٠٥.

(٦) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص ٢٧١.

(٧) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨١.

(٨) تيسير الكريم الرحمن السعدي ص ٣٠٥.

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٠٦.

(٢) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٤٠٧.

(٣) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٤١٠.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩١.

الرحمة عموم كامل صادق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ ولم يقل كل شخص، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة، وإرساله الرسل عدل ورحمة، وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون، وقمر منير، ونجوم ذات بروج، وسحاب ورياح ومرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله تعالى للإنسان، وما مكنه منه رحمة به^(١).

ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٢).

فعموم الرحمة في الآية الكريمة قد ورد ما يخصصه وهو قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٣).

قال ابن عادل رحمه الله: «وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» أي: أن رحمته في الدنيا تعم الكل، وأما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين؛ لقوله هنا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وهذا من العام الذي أريد به الخاص كقوله: ﴿وَأَوْرَثْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]»^(٤).

فنعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله تعالى للذين يؤمنون بالله وبالآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٥).

وإن كان المتقون هم أهل الرحمة، والرحمة مرصدة لهم؛ فقد دل القرآن الكريم أيضًا على قربها منهم، وهو ما سيكون الكلام عنه في الفقرة الآتية.

٤. قرب رحمة الله من المحسنين.

الله يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وكتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]^(٦).

فالرحمة مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامر الله ويتركون زواجره^(٧)، وقد قرب الله تعالى رحمته لعباده^(٨) فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأوضح في موضع آخر صفات عبده الذين سيكتبها لهم في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢٩٦٦/٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٩٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٢٧١/٣.

(٤) الباب في علوم الكتاب ٩/٢٣٨.

(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢٩٦٦/٦.

(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٣١/٤.

(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤٨١/٣.

(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/٢٨٧٠.

فقرر مطلوبكم منه، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسستم أحسستم لأنفسكم، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله عز وجل أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدُ ببعده، وقربُ بقرب، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه^(٣).

فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأمان، ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها^(٤).

وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ نَسَاكُتُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ [الأعراف: ١٥٦] (١).

جاء ذكر قرب رحمة الله من المحسنين عقب جملة من آداب الدعاء هي: الإخلاص فيه لله وحده، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا ولا آمنًا، ولا غير مبال بالإجابة^(٢) فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ٥٥ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

ولما كان قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملاً على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما تنال من دعاه خوفاً وطمعاً، فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمة، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعاً وخفية، وخوفاً وطمعاً

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٢٦-٢٨.

(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ٤٧.

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩١.

ثانيًا: اسما الله تعالى الرحمن والرحيم:

ورد اسما الله تعالى الرحمن والرحيم منفردين في مواضع من كتاب الله، واقترا في مواضع آخر من كتاب الله، كما اقترن اسم الرحيم بغيره من الأسماء الحسنى، كما اعتبر بعض أهل العلم الأسماء المضافة مثل: أرحم الراحمين، وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى^(١). وسأعرض لما تقدم من خلال الآتي:

١. ورود كل من الاسمين الكريمين منفردًا كل منهما عن الآخر.

الحسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون بجمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال^(٢).

وقد ورد اسما الله ﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ منفردين في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وأما اسم الله ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلم يرد في القرآن منفردًا إلا في ثلاثة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا

أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَنْفَعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿الرَّحْمَنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة، ورحمان أبلغ من رحيم، و﴿الرَّحْمَنُ﴾ خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف، و﴿الرَّحِيمُ﴾ يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمان^(٣).

والمعنى الذي حمل عليه أكثر أهل العلم الاسمين الكريمين سواء وردا منفردين أو مقترنين هو: أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلاق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وهذا القول نسبته الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره^(٤).

قال ابن كثير رحمه الله: «وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥].

فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢١٠.

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٤٨/ ١.

(١) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي ص ١٨٨.

(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.

واحدة رأيان لأهل العلم:
الرأي الأول: أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد، وجمع بينهما تأكيداً.
قال النحاس رحمه الله: «قال قطرب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد^(٣)؛ وهذا قول حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب يستغني عن الاستشهاد^(٤)».

وقال ابن العربي رحمه الله: «والصحيح أنهما بمعنى واحد للتأكيد، كندمان ونديم^(٥)».

الرأي الثاني: التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى، والجمع بينهما ليس للتأكيد.

وأشهر الأقوال التي ذكرت في معناهما قولان:

القول الأول: أن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة.

وهذا القول نسبته الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره^(٦).

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، الأتباري ٥٨/١.

(٤) معاني القرآن ٥٤/١.

(٥) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ٤٠٦/١.

(٦) أضواء البيان ٤٨/١.

جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين^(١).

وذكر الشنقيطي رحمه الله قول ابن كثير المتقدم وزاد عليه بقوله: «ومثله قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفًى وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩]، أي:

ومن رحمانيته: لطفه بالطير وإمساكه إياها صفات وقابضات في جو السماء، ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ① عَلَّمَ الْقُرْآنَ ②﴾ [الرحمن: ١-٢].

إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ رَّبِّكُمْ أَنْكَرَبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

وقال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فخصهم باسمه الرحيم^(٢).

٢. ورود الاسمين الكريمين مقترنين.

ورد هذان الاسمان مقترنين في أكثر من موضع من كتاب الله ومنها قوله تعالى في أول آية من كتاب الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

وعن سر الجمع بينهما واقترانها في آية

(١) تفسير القرآن العظيم ١٢٦/١.

(٢) أضواء البيان ٤٨/١.

قال الخطابي رحمه الله: «**الرَّحْمَنُ**» ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معاشهم ومصالحهم، وعمت الجميع المؤمن والكافر، وأما الرحيم فخاص للمؤمنين كما قال: «**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**» [الأحزاب: ٤٣] (١).

وقد أورد بعض أهل العلم على هذا القول إشكالاً؛ وهو قوله تعالى: «**إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ**» [البقرة: ١٤٣] (٢)؛ فلفظ الناس يشمل المؤمنين والكفار جميعاً. وأجاب عنه ابن عثيمين رحمه الله بقوله: «هذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرين لطاعة الله، ورسوله» (٣).

- (١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.
(٢) النهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، النجدي ٧٨/١.
(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة البقرة، ٢/ ١٢١.

وقال رحمه الله في شرح الواسطية ص ٢٨: «فيجتمع من الرحمن الرحيم: أن رحمة الله واسعة وأنها واصله إلى الخلق، وهذا ما أومأ إليه بعضهم بقوله الرحمن: رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم».

القول الثاني: أن «**الرَّحْمَنَ**» دال على صفة ذاتية، و«**الرَّحِيمَ**» دال على صفة فعلية. وهذا القول: هو اختيار: القرطبي، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين رحمهم الله (٤).

قال القرطبي رحمه الله: «وروي عن أبي عبيدة أنه قال: «**الرَّحْمَنُ**» ذو الرحمة، و«**الرَّحِيمُ**» هو الراحم» (٥). قال ابن الحصار: يشير -والله أعلم- إلى «**الرَّحْمَنَ**» صفة الخالق سبحانه، و«**الرَّحِيمَ**» يدل على أفعاله التي يرحم بها عباده، ولله درّه في هذا القول» (٦).

إن التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد (٧).

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وينسب إلى قطرب: أن «**الرَّحْمَنَ**» و«**الرَّحِيمَ**» يدلان على معنى واحد من

- (٤) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦، بدائع الفوائد، ابن القيم ص ٤٢.
(٥) مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢١/ ١.
(٦) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.
(٧) قواعد الترجيح عند المفسرين، الحربي ٤٧٣/ ٢.

حصول المطلوب^(٤).

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رحمه الله بقوله: «فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢٠]»^(٥).

وعن سر تقديم الغفور على الرحيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢٠].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم والعموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: ﴿فَكَفَّهُ وَغَلَّ وَرَمَانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]»^(٦).

الثاني: العزيز:

اقترن الاسمان العزيز والرحيم في أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩].

والعزيز: هو الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع

- (٤) شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٩٠.
(٥) بدائع الفوائد ١/ ٨٧.
(٦) المصدر السابق ١/ ١١٢.

الصفة المشبهة، فهما متساويان، وجعل الجمع بينهما في الآية من قبيل التوكيد اللفظي، ومال إليه الزجاج^(١)، وهو وجه ضعيف؛ إذ التوكيد خلاف الأصل والتأسيس خير من التأكيد، والمقام هنا بعيد عن مقتضى التوكيد^(٢).

٣. اقتران اسم الله الرحيم ببقية الأسماء الحسنی.

اقترن اسم الله الرحيم بستة أسماء غير اسم الرحمن، وسأذكرها مرتبة حسب الأكثر ورودًا في القرآن، وهي:
الأول: الغفور:

اقترن الاسمان الغفور والرحيم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كلها تقدم فيها الغفور على الرحيم إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢٠]

والغفور: هو الذي يستر الذنوب عن الخلق، ولا يظهرها^(٣).

والله سبحانه يقرن بين الاسمين الكريمين ﴿الْغَفُورُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لأنها دالان على معنى متشابه؛ ففي المغفرة زوال المكروب وآثار الذنب، وفي الرحمة

- (١) تفسير أسماء الله الحسنی، الزجاج ص ٢٩.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٧٢.
(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنی، الزجاج ٢٨، الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني ١/ ١٤٤.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ قَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ
التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتواب من أسمائه تعالى، وهو الكثير
القبول لتوبة العبد، أو الكثير الإعانة
عليها^(٥).

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين
﴿التَّوَابُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾: أن الرحيم يدل
على تفضله سبحانه على عبده مع التوبة
بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته، وصفحه
عن عقوبة جرمه، فقبول التوبة سبب رحمة
الله لعبده^(٦).

قال ابن سعدي رحمه الله: «وختمه كثيرًا
من الآيات بهذين الاسمين ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾
بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض
من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه،
فمناسيته جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو
﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾، أقبل بقلوب التائبين إليه،
ووقفهم للأخذ بالأسباب التي يتوب عليهم
ويرحمهم بها، ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب
عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب
عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم
نطفًا منه ورحمة بهم»^(٧).

الرابع: الرؤوف.

اقترن الاسمان الرؤوف والرحيم في

أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع
الموجودات، ودانت له الخليفة وخضعت
لعظمته^(١).

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين
﴿الْعَزِيزُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ فلإشارة إلى أن
العزة على من لم يؤمن منهم، والرحمة لمن
آمن^(٢).

قال أبو حيان رحمه الله: «﴿وَلِإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، أي: الغالب
القاهر، ولما كان الموضع موضع بيان
القدرة، قدم صفة العزة على صفة الرحمة.
فالرحمة إذا كانت عن قدرة، كانت أعظم
وقعًا، والمعنى: أنه عز في نعمته من الكفار،
ورحم مؤمني كل أمة»^(٣).

وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير
قوله تعالى: «﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢].

وقوله: «﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ يقول
جل ثناؤه واصفًا نفسه: إن الله هو العزيز
في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه، وأهل
طاعته»^(٤).

الثالث: التواب.

اقترن الاسمان التواب والرحيم في أكثر
من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى:

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.

(٢) الإتيان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٢٢٧.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٧.

(٤) جامع البيان ٢٢/ ٤٢.

(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٨، البحر

المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.

(٧) انظر: القواعد الحسان ص ٥٣.

رَحِيمٌ وَدُودٌ [هود: ٩٠].

والودود من أسمائه تعالى: هو الذي يحب أنبياءه ورسله وأوليائه وعباده المؤمنين فهو الودود بمعنى الواد، وهو المودود، أي: المحبوب الذي يستحق أن يحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته^(٥).

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿الرَّحِيمُ﴾ و﴿الْوَدُودُ﴾ يقول ابن القيم رحمه الله: «وما ألطف اقتران اسم الله الودود بالرحيم؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبّه، وكذلك قد يرحم من لا يحبّه، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبّه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان»^(٦).

السادس: البر.

اقترن الاسمان البر والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

والبرّ: هو العطوف على عباده، المحسن إليهم، عم ببره جميع خلقه، فلم يخل عليهم برزقه^(٧).

أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الرءوف: مأخوذ من الرأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة^(١).

قال الزجاج رحمه الله: «الرأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»^(٢).

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿الرَّحِيمُ﴾ و﴿الرَّءُوفُ﴾: فلإفادة أنه تعالى يرحم الرحمة القوية لمستحقها، ويرحم مطلق الرحمة من دون ذلك^(٣).

قال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]: الرءوف: مأخوذ من الرأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسان إلى خلقه، والإنعام عليهم^(٤).

الخامس: الودود.

اقترن الاسمان الودود والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هو قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

(١) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣٨١/١.

(٢) تفسير أسماء الله الحسنى ص ٦٢.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/٢.

(٤) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣٨١/١.

(٥) انظر: جلاء الأفهام، ابن القيم ١٤٤/٤، فتح

الرحيم الملك العلام، السعدي ص ٥٥.

(٦) التبيين في أقسام القرآن، ص ٥٧.

(٧) شأن الدعاء للخطابي ص ٨٩.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقال عن يوسف عليه السلام في موضعين: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنْتُمْ عَلَيَّ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَنْزِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وأرحم الراحمين، أي: الأشد رحمة من كل راحم^(٤)، ومن يرحم غاية الرحمة^(٥). قال ابن جرير رحمه الله: «﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئاً^(٦).

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وكون الله تعالى أرحم الراحمين؛ لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلباً للثناء في الدنيا، أو للثواب

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿الْبَرِّ﴾ و﴿الرَّحِيمِ﴾ فلأن كليهما عطاء من الله وتكرم، فالرحيم: المرید إكرام عباده المؤمنين في الدنيا بالرزق والعطف والإحسان، وفي الآخرة بالجنة، والبر: هو المحسن إلى خلقه؛ عمهم برزقه، وخص من شاء منهم بولايته، ومضاعفة الثواب له على طاعته والتجاوز عن معصيته، وكلا الاسمين فيهما إحسان وإكرام وعطاء وتفضل، وكلا الاسمين نعمة، وهذا كله رحمة^(١).
٤. الأسماء المضافة.

ذهب جمع من أهل العلم إلى اعتبار الأسماء المضافة وعدّها من ضمن الأسماء الحسنی^(٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك أسماءه المضافة مثل: أرحم الراحمين... وغير ذلك ممّا ثبت في الكتاب والسنة، وثبت في الدّعاء بها بإجماع المسلمين»^(٣).

ومن الأسماء المضافة ولها تعلق بالرحمة: أرحم الراحمين، وخير الراحمين. أما أرحم الراحمين: فقد ورد في دعاء أنبياء الله عليهم السلام.

قال تعالى عن موسى عليه السلام:

(١) رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر الغامدي، ص ٢٠٦.

(٢) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنی، التميمي ص ١٨٨.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٤٨٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١٨/٩.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٣١.

(٦) جامع البيان ١٣/ ١٣٣.

من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].
وقد ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الفضل إذا اقترن بالرحمة يكون بمعنى المنة أو النعمة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ذكر أهل التفسير أن الفضل في القرآن على ثمانية أوجه... السادس: المنة والنعمة، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]... وفي النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠].»

وقال الحيري رحمه الله: في بيان الوجوه التي ورد بها الفضل في القرآن الكريم: «أحدها: المنة كقوله في البقرة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤] وحيث كان» (٧).

وقال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ١١٣]: «والفضل هو العطاء الزائد، والرحمة أعم؛ لأن الرحمة يكون فيها دفع المكروه وحصول المطلوب،

في الآخرة، أو دفعاً للرقعة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية» (١).

وأما خير الراحمين: فقد ورد في موضعين من القرآن الكريم في سورة المؤمنون وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].
وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وخير الراحمين، أي: أفضل من رحم (٢)، وخير من رحم (٣).

قال الواحدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾، أي: أفضل رحمة من الذين يرحمون» (٤).

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه» (٥).

٥. اقتران الفضل بالرحمة.

اقترن الفضل والرحمة في مواضع

(١) التحرير والتنوير ١٧/١٢٧.

(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين ٣/٢١٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/٤٩٦.

(٤) الوسيط ٣/٣٠١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٠.

(٦) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٧٢.

(٧) وجوه القرآن، الحيري ص ٤١٧. وانظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٦٧.

من وصف بالرحمة في القرآن

الله أرحم الراحمين، جعل الرحمة صفة له سبحانه، ووصف بها من شاء في كتابه، فوصف كتبه، وأنبياءه، وعباده المؤمنين، وبعض مخلوقاته بالرحمة، وسأعرض لمن وصفهم بها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: الكتب السماوية:

نعمة إنزال الكتب من أجل النعم التي أنعم الله بها عباده.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ رَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَلْقَاءَ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

قال الخازن: «قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: إنزاله عليهم رحمةً مني عليهم»^(٣)؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية^(٤).

ومن أعظم الكتب المنزلة: القرآن، والتوراة؛ وجرت العادة أن الله ينوه بالتوراة والقرآن معاً؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل نزول القرآن كانت التوراة أعظم

والفضل حصول المطلوب»^(١).

وفي كلام ابن جرير ما يدل للمعنى الذي ذكره ابن عثيمين رحمه الله؛ فقد قال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥]: «يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله»^(٢).

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/٢٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/٤٢٩.

(٣) لباب التأويل ٢/٢٠١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٣.

بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢﴾ [القصص: ٤٣].

وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في وصف كلا الكتابين في جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم؛ للدلالة على التعظيم والتفخيم؛ حيث لا يقدر قدرها ولا يدرك شأنها^(٣).

قال الشوكاني رحمة الله: «والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة»^(٤).

وقد قصر الله الرحمة التي تضمنتها تلك الكتب على المؤمنين فقط، فقال تعالى في التوراة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْفَضْبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ فِي شَحَنَيْهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَبُونَ﴾^(٥)، الذين هم يخافون الله؛ وخصهم لأنهم هم المتتبعون به^(٦).

الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَنَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَنَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يُلْقَاوْا رَيْبَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

نوه بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ قَاتِبٌ وَمُزَكَّىٰ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ومثل هذا يتكرر في القرآن^(١). وقد ورد وصف كلا الكتابين بالرحمة كما تقدم في الآيتين من سورة الأنعام، كما اقترن وصف الرحمة في كليهما بأوصاف أخرى، كوصفهما بالهدى والبصائر.

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]: «وما تضمنته

آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٥٢٥/٢، ٥٢٤.

(٢) أضواء البيان ٣٨٠/٧.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٥٥/٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/٨.

(٤) فتح القدير ٢٨٥/٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٣.

(٦) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ١٩٠/٤.

وقال تعالى أيضًا عن التوراة: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود: ١٧].

أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوة يقتدون بها، ورحمة من الله بهم؛ فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [هود: ١٧] (١).

وقال سبحانه في القرآن: ﴿تَنبَأُهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشَقَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهَذَى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والريح والنجاح، والفرح والسرور (٢).

ومما يجدر الإشارة إليه أن التوراة رحمة لمن أنزلت إليهم قبل أن تنسخ بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا يرجعون إليها في أمور الدين والأحكام، فهداهم الله

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/٤١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٦.

بها من الضلال؛ وهذا هو السبب للرحمة حتى نسخ الله منها ما نسخ (٣)؛ فلا يستدل بالمطبوع من التوراة الذي يغير إلى الآن أنا بعد آن، تقرؤه تجد في ذاته دليل بطلانه، وبرهان بهتانه (٤).

ثانيًا: الرسل:

الرحمة صفة الأنبياء والمرسلين، وقد جاء ذلك مصرحًا به في القرآن الكريم؛ فقال تعالى عن نبيه يحيى عليه السلام ﴿وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣].

والحنان هو الرحمة، والعطف والشفقة (٥)؛ وقد أعطاه الله هذه الصفة لا بتربية ولا تعليم، فهو مهدي حنون شفيق بمقتضى تكوينه الفطري، ولذا قال تعالى: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾ (٦)، فأعطاه الله تلك الرحمة التي تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله (٧)، ويجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمة من لدنا كائنة في قلبه يتحنن بها على الناس؛ حتى يخلصهم من الكفر (٨).

والمعنيان متلازمان؛ قال البغوي رحمه

- (٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص ١٤٣.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/٣٦٨٧.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/٢٨٨.
(٦) انظر: زهرة التفاسير ٩/٤٦١٨.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.
(٨) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/٣٢٦.

وقال تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام
﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ
أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

رحمة من الله عز وجل لمريم؛ لما
حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع
العظيمة^(٤)؛ لأنها صارت به أم نبي، له
وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، كما
قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرُؤُكُمْ إِنَّ
اللَّهَ يَبْشُرُكُمْ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل
عمران: ٤٥].

ورحمة من الله به حيث جعله نبياً يدعو
إلى عبادة الله تعالى وتوحيده في مهده
وكهولته، كما قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي
الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران:
٤٥]^(٥).

ورحمة لمن آمن به؛ لما ينالونه منه من
الهداية والخير الكثير؛ لأن كل نبي رحمة
لأمته^(٦).

وخاتم الأنبياء وأفضلهم نبينا محمد
صلى الله عليه وسلم، وصفه ربه بالرحمة
في آيات عدة من كتاب الله، وأخبر صلى
الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: ((إنما أنا
رحمة مهداة))^(٧).

الله: «ومعنى الآية: وآتيناه رحمةً من عندنا
وتحننا على العباد، ليدعوهم إلى طاعة
ربهم»^(١).

والحنان صفةٌ ضرورية للنبي المكلف
برعاية القلوب والنفوس، وتأليفها
واجتذابها إلى الخير في رفق^(٢)؛ ولذا قال
تعالى في وصف نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْتِ
عَمْرَان: ١٥٩].

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، من
الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخففت
لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم
خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا
أمرك؛ لأن الأخلاق الحسنة من الرئيس في
الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم
فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب
الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في
الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه،
مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص؛
فلذا كان من أوجب الواجبات، وأهم
المهمات، معاملة الناس بما يعاملهم به
صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق
والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله
لدين الله^(٣).

(١) معالم التنزيل ٥/٢٢٢.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/٢٣٠٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٤.

(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٩١.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/٢٢٢.

(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/٣٧٩.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرک ١/٩١، رقم

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اشتملت هذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه^(١).

والرحمة على عمومها في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته^(٢)؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمةً للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة، ورحمةً للمنافقين حيث أمّنوا القتل، ورحمةً للكافرين بتأخير العذاب^(٣).

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك

عن أن يكون رحمةً لهم لكن لم يقبلوها^(٤). وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلاً قال: لو فجر الله عيناً للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفروطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرّمها ما ينفعها^(٥)، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَنُورٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]^(٦).

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمِنَهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذْنٌ قُلْ أَذْنُ خَيْرٌ لَّكُمْ يَوْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

١٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال المحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٤٦٣/١.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦٥/١٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٥٢/١٨.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٤٤٥/٢.

(٤) انظر: جلاء الأفهام ص ٢٨٨.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٨٥/٥، أضواء البيان، الشثيبي ٢٨٨/٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٢.

(٥) انظر: أضواء البيان ٢٨٨/٤.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٣٨٥/٥، أضواء البيان ٢٨٨/٤.

يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [التوبة: ٦١].

وأورثهم باتباعه جناته^(٥).
ولذا قال أبو الليث السمرقندي رحمه
الله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» في السر
والعلانية^(٦).

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: «وَالَّذِينَ
يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» فهو مقابل
قوله: «وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ»، يدل
على إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول
أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب
الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه وهو العذاب
الشديد الإيلام^(٧).

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا:
المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم
المنافقون^(٨).

وكونه رحمة لهم؛ لأنه قبل منهم الإيمان
الظاهر، لا تصديقاً لهم بل رفقا بهم، ولم
يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه
رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها
معاملة المؤمنين^(٩).

ويؤيد هذا أن الله قال: «لِلَّذِينَ آمَنُوا»
فعبّر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسعى
في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين مع
كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم
بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة، وخيراته
بالشرور^(١)؛ وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه
صلى الله عليه وسلم عن إجرامهم وإمهالهم
حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان
منهم^(٢)؛ فإنه لو أمره الله تعالى أن يعاملهم
بما يخفون من الكفر لكان ذلك أمراً يقطع
رقابهم، وبقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي
يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس
الأمم؛ لأنه إمهال لهم يرجي أن يتوب بسببه
من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من
آيات الله، وتأييده لرسوله وللمؤمنين^(٣).

وخص المؤمنين في قوله: «وَرَحْمَةً
لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ» وإن كان رحمة
للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب
الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا
بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين
لحصول مزيتهم^(٤).

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا: من
اتبعه واهتدى بهداه، وصدق بما جاء به من
عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة،

(٥) انظر: جامع البيان ١٨/٥٥٢.
(٦) تفسير السمرقندي ٢/٦٩.
(٧) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/٤٤٩.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/٢٧١، إرشاد
(٩) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/٢٧١، إرشاد
العقل السليم، أبو السعود ٤/٧٧، فتح
القدير، الشوكاني ٢/٤٢٩، روح المعاني،
الألوسي ١٠/١٢٧.

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/٩٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/٢٤٣.
(٣) البحر المحیط، أبو حيان ٥/٦٤.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/٤٤٨.

بالوصف^(١).

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فحسروا دنياهم وآخرتهم^(٢).

وأما قولهم: أن الله قال: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فعبّر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيراً ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي^(٣).

وأما تفسيرهم كونه رحمةً بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهراً؛ فهو خطأ أيضاً؛ لأن ذلك يعتبر استدراجاً من الله لهم، وكيف يكون رحمةً لهم وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟!^(٤).

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه

صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصف الله رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالْكَافِرِينَ لَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا نهاية الكرامة^(٥).

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو صلى الله عليه وسلم يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم^(٦).

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصاً وهو قوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^(٧)؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهي رحمة مشوبة بشدة على غير

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨،

تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤١.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.

(٤) انظر: المنافقون في القرآن الكريم، الحميدي

ص ٤١٩.

(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٦٣،

الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٤٢.

(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٥٢.

(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٠.

جميل^(٣)؛ ومن الصفات الجميلة التي وصف الله بها نبيه أنه ﴿رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وارتضى لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالتأسي به، ووصفهم بقوله: ﴿رَحْمَةً يَبْتَنِمُ﴾^(٤). وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقاً، ولا رحماء مطلقاً، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم في العقيدة، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]^(٥).

وفي هذا إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمداً دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية^(٦)؛ لأن الشدة في محل اللين هي من الحق والخرق، واللين في محل الشدة هو من الضعف والخور، والسداد والحكمة

المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم^(١).

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «وتخصيص رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبدولة لجميع الأمم، لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردّها، وقد بينّا في تفسير ﴿وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، أنه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه؛ لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة، والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]^(٢).

ثالثاً: المؤمنون:

وصف الله عباده المؤمنين بالرحمة في عدة آيات من كتابه مدحاً وثناءً عليهم بهذه الصفة، ومنها قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ابتدأ الله سبحانه الآية الكريمة بوصف رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، وهو مشتمل على كل وصف

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧٣/١١.
(٢) المنار ٧٢/١١.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣٦٠/٧.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١١٩/٢.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٢٣/٢٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠٥/٢٦.
(٦) انظر: التحرير والتنوير ٢٠٥/٢٦.

أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين^(١).

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار، رحيماً براً بالأخيار، غضوباً عبوساً في وجه الكافر، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا فَتَقُولُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر)^(٢)، وقال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه)^(٣)»^(٤).

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده

المؤمنين بالرحمة، ما وصف به الحواريين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

ثناء من الله على أتباع عيسى عليه السلام، وهم الحواريين، الذين اتبعوا عيسى على منهجه وشريعته^(٥)، كما قال تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

ووصف لهم بما وصف به صحابة نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿رَحِمَاءٌ يَنْهَمُونَ﴾ [الفتح: ٢٩]^(٦).

وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضرر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها^(٧).

ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه: أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى؛ لأنه أمرهم به ويسره عليهم، ذلك أن عيسى بعث لتهذيب نفوس

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ١٥٢/٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٢٢٣٨/٥، رقم ٥٦٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤، رقم ٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ٨٦٣/٢، رقم ٢٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ١٩٩٩/٤، رقم ٢٥٨٥، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) تفسير القرآن العظيم ٣٦٠/٧.

(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١٣/٢٩،

التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١٠٠/٤.

(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠٢/٢٣.

(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤٢١/٢٧.

التواصي بالصبر على الشدائد والطاعات، وعن المعاصي والسيئات، والتواصي بالتراحم، من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الفضائل، ويغلق الطريق دون سائر الرذائل، وهذا عنوان أهل الميمنة^(٥)؛ لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله^(٦).

فالصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها؛ لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر، والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رَحْمَةً يَنْتَهِمُ﴾ [الفتح: ٢٩].

والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتصافهم بالرحمة؛ لأن من يوصي بالرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها^(٧).

وقد قرن الله بين الصبر والرحمة في الآية الكريمة والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس^(٨).

اليهود، واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]^(١).

بل إن الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذلك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا فَنَصِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]^(٢).

ولكن بعد أن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية^(٣)، وتماثلهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين^(٤).

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده المؤمنين بالرحمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ١٣٨/٩.

(٦) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٤٠٧/١٥.

(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٣٦١.

(٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ٤٧/١٠.

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٦٧/٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص ٤٢٧.

(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ٥٤٣/١.

فالذين اتصفوا بالصبر والرحمة، هم الذين وفقهم الله لاقتحام العقبة التي ذكرها الله في الآيات التي تسبق هذه الآية^(١).

قال تعالى: ﴿فَلَا أَقْنَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكْ رَقَبَةً ۝ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝﴾ [البعد: ١١-١٦].

ففكوا الرقاب، وأطعموا المساكين، وواسوا ذوي القربى في يوم المسغبة؛ ولذا كانوا هم السعداء الممتعون بجنات النعيم^(٢) ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا﴾ [البعد: ١٨]؛ الذين يؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، ومن أوتي كتابه يمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا^(٣).

رابعًا: الغيث:

المطر رحمة من الله يرحم بها عباده في الدنيا فيكونون في جذب وفي فقر، ومواشيهم على وشك الهلاك، فيغيثهم الله بالمطر، فتنبت زروعهم وثمارهم وتنعم مواشيهم فتكثر عندهم اللحوم والأسمان والأزباد، وتتوفر عندهم الأشعار والأصواف والأوبار، ينسجون منها اللباس وغيره من الفرش والخيام وما جرى مجرى

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧٠/٣١،

تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٦٣/٣٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص ٢١٨.

ذلك. فهذا من غرائب آياته، وعظائم نعمه، فهذا هو أصل النعم الدنيوية على الخلق^(٤)؛ ولذا سماه الله رحمة في أكثر من موضع من كتابه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝﴾ [التحش: ٤٨] لِنُخْشِي بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا وَنُشْقِيَهُ. وَمَا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاصِيًا كَثِيرًا ۝﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

فالحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض، ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكًا صحيحًا كاملاً، وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب، ويستبشرون بها؛ ويحسون فيها رحمة الله إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان^(٥).

فإذا انقطع عنهم المطر مدة وظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون

(٤) انظر: العذب النмир، الشنقيطي ٤١٦/٣،

٤١٥.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٥٧٠/٥.

موجبات رحمة الله تعالى

إن رحمة الله جل وعلا تستجلب بأسباب ذكرها الله في كتابه، ومن هذه الأسباب:

١. الإيمان والهجرة والجهاد.

الإيمان الصحيح الذي يحشو قلوب أهله بحب الله وتعظيمه، ويجعلهم يتفانون في طاعة الله ورسوله ويفضلونها على الأهل والعشيرة والأوطان والمال والإخوان والجاه وكل متع الدنيا ولذاتها، فيهجرونها في سبيل الله، ويعرضون أنفسهم للمكابد؛ والمكائد، فيجاهدون ابتغاء وجهه الكريم^(٥)؛ فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة^(٦)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وبين جل وعلا في موضع آخر أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، أنهم أعظم درجة عند الله من جميع الخلق^(٧)، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ

بذلك ويفرحون^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]

وقد أمرهم تعالى أن ينظروا نظرة تعقل واتعاظ واستبصار، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة^(٢)، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

فبعد أن بين استبشار الناس بنزوله بعد الإبلان؛ اعترض بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف، والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال^(٣)؛ فبعد ما كانت أرضهم مقشعة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ﴾، يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾^(٤).

(٥) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣٥٧/٣.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٨.

(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/٤٤٢.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٨.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٩٨/١١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/١٢٣.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٣٢٣.

﴿الْفَائِزُونَ﴾ [التوبة: ٢٠].

ثم بين الدرجة العظيمة التي في قوله: ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة: ٢١-٢٢].

فتلك الدرجة: هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم^(١).

٢. طاعة الله ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتظمت هذه الطاعات والعبادات التي جعلها الله من موجبات رحمته في آية من كتاب الله تعالى، أبان الله فيها حسن حال المؤمنين والمؤمنات في الحال والمآل فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وابتدأها بالإشارة إلى أن اللحمة الجامعة

بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلداً للآخر، ولا تابعا له على غير بصيرة؛ لما في معنى الولاية

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/١٤٩.

من الإشعار بالإخلاص والتناصر^(٢).
ثم بين الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله.

ومنها: طاعة الله ورسوله التي هي سبب للرحمة^(٣) كما تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فأمر الله المؤمنين أن يطيعوا الله في كل ما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول صلوات الله وسلامه عليه، سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله؛ ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١]^(٤).

والمراد: أنه تعالى يتعهد المؤمنين والمؤمنات برحمته الخاصة المستمرة في مستقبل أمرهم في الدنيا والآخرة، باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله^(٥).

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/٢٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران، ٢/١٦٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/٨١.

(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/٤٦٩.

هُمْ كَفَرُونَ ﴿٧﴾ [فصلت: ٦-٧] (٣).

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهاتان الصفتان من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار، هما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل (٤)، والمعروف اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، والمنكر كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة (٥).

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بعيد عن رحمة الله، مستحق لغضب الله ولعنته، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

الصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمن كاذب، وقد منته نفسه الأماني الكاذبة (١).

وخص الله الزكاة بكونها سبباً من أسباب الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وخصها دون ما عداها من الطاعات؛ لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضي أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات (٢).

ويفهم من هذه الآية من مفهوم مخالفتها: أن الذين لا يتقون الشرك ولا المعاصي، ولا يؤتون الزكاة لا تكتب لهم هذه الرحمة، وقد بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ

(٣) انظر: العذب النمير، الشنيطي ٢٠٥/٤.

(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/٤٦٧.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٣.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ٩/٨٠.

عَصُوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨]

فهذه الصفات الأربع استوجب بها المؤمنون رحمة الله.

وبعد أن بين صفاته ورحمته لهم إجمالاً بقوله: ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلاً؛ للتنبيه على أن تلك الرحمة هي هذه الأشياء^(١) فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٣. الصبر.

الصابرون المحتسبون على المصائب، عليهم من ربهم الرحمن الرحيم صلواته العامة ورحمته الخاصة^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَنَشَرُوا الْقِدْرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة؛ ثناء وتنويه بحالهم ورحمة

عظيمة، أولها توفيقه إياهم للصبر الذين ينالون به الأجر، وجبرهم في مصيبتهم بأن يخلف عليهم خيراً منها^(٣).

فالله تعالى لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط، وحسبهما جزاءً للصبر ولكن من بالرحمة، رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، فرحمهم في الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم في الآخرة بالنعيم المقيم^(٤).

وهذه الرحمة يحسددهم عليها الكافرون، فإن الكافر الذي حرم من هذه الرحمة، إذا نزلت به المصيبة تضيق به الأرض بما رحبت، حتى لقد يقضي على نفسه بيده إذا لم يجد وسيلة للخلاص مما حلّ به^(٥)؛ فمن لم يصبر فهو محروم من صلوات الله ورحمته وهدايته^(٦).

٤. العفو.

القصاص في النفس والجراح كان حتماً في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخير الله تعالى هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥.

(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٧٥.

(٥) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢٥٦.

(٦) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم الدوسري ٢/ ٤٦٩.

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٧.

(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٢/ ٤٦٩.

ولإنما كانوا العفو رحمة؛ لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك؛ وأي رحمة أعظم من ذلك؟ ولعل القاتل المعفو عنه يستقل من الأعمال الصالحة في المدة التي عاشها بعد استحقاق قتله ما يمحو به هذه الفعلية الشنعاء، فمن الرحمة إمهاله لعله يصلح أعماله^(٧).

وكذلك العفو رحمة بالعافي إذ به يتخلص من الأحقاد، وأضغانها، ورحمة بالأمة لكونه بدل أن ينقص عددها اثنين ينقص إلى واحد، وبدل أن تتبادل الدماء تنتهي المعركة^(٨).

فبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن في حياتها؛ إذ العدالة هي التي تكسر شر النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجاني عن التماذي في الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصاً عادلاً، والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتواد بعد التعادي، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو؛ فلله هذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته^(٩).

٥. الموت في سبيل الله.

(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١٧/٢.

(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/٥٣٧.

(٩) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٣٧٢/١.

تخفيفاً منه ورحمة^(١)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعِثْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالإسلام قد جمع في تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة^(٢). وكان العفو والدية تخفيفاً من الله إذ فيه انتفاع الولي بالدية، وحصول الأجر بالعفو استبقاء مهجة القاتل، وبدل ما سوى النفس هين في استبقائها^(٣).

وقد رغب الشارع في العفو بما يحرك عاطفة الرحمة والحنان^(٤)؛ بذكر الأخوة الرابطة التي لم يقطعها الاعتداء؛ لأنها برباط الله تعالى فلا يفكه العبد^(٥)، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْعِثْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ﴾ ترفيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاناً^(٦).

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/١٩١.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/١٤٣.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/١٧.

(٤) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٤٢/٣.

(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/٥٣٦.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤.

الموت في سبيل الله، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

في هذه الآية ترغيب للمؤمنين في الجهاد وأنه مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون؛ وتعزية لهم وتسلية مما أصابهم في سبيل الله تعالى^(٢)؛ لأنه سبحانه لا يختارهم لشيء أفضل مما عنده، ولا يختار الجزاء الدنيوي فقط مهما عظم وضخم؛ لأنه لا يساوي شيئاً مما في الآخرة، فبموت المؤمن أوقتلته يتخلص من عدوه ويلحق بمحبوبه الرب العظيم، فكان جزاؤه منه سبحانه المغفرة والرحمة التي لا تعدلها الدنيا ثمناً^(٣)؛ لأن الشيء يعظم بعظم باذله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾^(٤)؛ وجمع بينهما ليكمل للإنسان سعادته؛ إذ بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب^(٥)، فالمغفرة تمحو ما كان من ذنوبه، والرحمة

ترفع درجاته^(٦).

وذكر رحمة الله تعالى في هذا المقام؛ لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على من ماتوا منهم، فإنهم ليسوا في شقاء بل هم في نعيم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]^(٧).

٦. الاعتصام بالله.

وعد الله المؤمنين المعتصمين به بالرحمة والفضل والهداية، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النساء: ١٧٥].

فالذين اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتزويجه من كل نقص وعيب، ولجأوا إليه واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم^(٨)؛ ستنالهم الرحمة العاجلة والآجلة^(٩)، الرحمة العاجلة في الدنيا بأن يكونوا في سعادة واطمئنان وهدوء بال^(١٠)؛ لأن أنعم الناس بالآ وأشدهم انشراحاً في الصدور هم

(٦) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١١٠.

(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٢، تفسير المراغي ٤/ ١١٠.

(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٧.

(٩) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٥٣٣.

(١٠) انظر: زهرة التفاسير ٤/ ١٩٩٤.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٧.

(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٠٤.

(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٤/ ٣٨٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران ٢/ ٣٥٩.

(٥) المصدر السابق ٢/ ٣٦٠.

﴿فَسَاكِنِبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾^(٥) [الأعراف: ١٥٦].

لأن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته -الذي هو التقوى- سبب للرحمة^(٦)، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

أي: فیرحمکم ربکم إن أنتم حذرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم من فرائضه^(٧).

ولذا قال نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوْعِظُكُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَّانٍ تَجَلَّى مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعّلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهراً وباطناً، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة^(٨).

قال الرازي رحمه الله: «وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن

المؤمنون المعتصمون بالله^(١)، وأما الرحمة الآجلة فهي النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبداً^(٢).

ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرّمهم من فضله، وخلق بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة^(٣).

٧. التقوى.

تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه سبب لرحمة أرحم الراحمين^(٤)، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ ﴿فَسَاكِنِبَهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها:

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٥٣٣/٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/١٩٩٤.

(٣) انظر: تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.

(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/٤٣.

(٥) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.

(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة يس ص ١٦١.

(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/٥٢٦.

(٨) انظر: تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٢.

كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة^(١).

بل جاء ما يدل على زيادة الرحمة لأهل التقوى فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإتياء مرة بعد أخرى^(٢).

٨. قراءة القرآن والاستماع والإنصات إليه.

الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، هي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة^(٣) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقد جاء الأمر بالاستماع والإنصات بعد أن وصف القرآن بأنه بصائر وهدي ورحمة في قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيَهُمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا

لَوْلَا اجْتَبَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ لأن الذي اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حري بأن يصنى إليه، حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة ويتنفع بها؛ فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلال ويرحم بها^(٤).

والخطاب في قوله: ﴿فَاسْتَمِعُوا﴾ إن كان للكفار فترجى لهم الرحمة باستماعه والإصغاء إليه بأن كان سبباً لإيمانهم، وإن كان للمؤمنين فرحمتهم هو ثوابهم على الاستماع والإنصات والعمل بمقتضاه، وإن كان للجميع فرحمة كل منهم على ما يناسبه^(٥).

فمن لازم الاستماع والإنصات؛ حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدياً متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛ فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير^(٦).

٩. البراءة من عبادة غير الله.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/٤٤٨.

(٥) انظر: المصدر السابق.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/١٢٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٣.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/٤٦١.

جُرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الشاء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة^(٤).

وفي معنى هذه الآية أيضاً قوله تعالى في نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلْتُمُومًا وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۖ وَوَهَبْنَا لَهُمُ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم: ٥٠].

واعتزلهم إياهم هو مجانبتهم لهم، وفرارهم منهم بدينهم^(٥). والرحمة تذكر هنا؛ لأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره، وتؤنسه في وحدته واعتزاله^(٦).

والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مماله يؤت أحد من العالمين؛ وإن كان ذكرها بعد جعلهم أنبياء إيداناً بأن النبوة من باب الرحمة التي يختص بها من يشاء^(٧).

قال ابن سعدي رحمه الله: ﴿رَحْمَتِنَا﴾ يشمل جميع ما وهب الله لهم

اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبودهم من أسباب لطف الله به ورحمته^(١)، كما قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذْ أَعْرَزْتُمُومًا وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

فهؤلاء الفتية بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد، وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله بينوا واجبه الذي يتحتم عليهم فعله، وهو اعتزال قومهم، وما يعبدون من دون الله، والبراءة من شركهم^(٢).

فلما اعتزلوه أمرهم الله بالتوجه للكهف؛ وفي هذا دليل على ما كانوا عليه من التوكل حيث أوا إلى كهف، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم، وتهيته رفقته تعالى بهم؛ لأن من أخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعهم^(٣).

وقبل هذا أخبر سبحانه أنهم دعوه بقولهم: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.

(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٣.

(٧) انظر: روح المعاني، الألويسي ١٦/ ١٠٣.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.

(٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٤/ ٣١٠.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٠٣.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب، وكما أن أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير، ودفع الشر، فكذلك الأخوة في الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح^(٧)، ومن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفريق القلوب وتباعدتها وتدابرها.

وقد رتب الله على الإصلاح بين المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة^(٨)؛ وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها^(٩).

وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم الاقتتال والتنازع بين المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة^(١٠).

من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون^(١).
١٠. قيام الليل.

العابد لربه الطائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمل رحمة ربه^(٢)، أي: حصولها^(٣)، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فوصفه الله بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، في أفضل الأوقات وهو أوقات الليل، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يشبهه على حسناته^(٤)، فيدخله الجنة^(٥).

١١. الإصلاح بين المؤمنين.
من حقوق المؤمنين الإصلاح بينهم، وبه تحصل لهم الرحمة من الله عز وجل^(٦)،

- (١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٤.
- (٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٤٨٣.
- (٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٠٢.
- (٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٦.
- (٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٨.
- (٦) انظر: تنوير العقول والأذهان

- في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٤٢.
- (٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٣٠٩.
- (٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠٠.
- (٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
- (١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٨٠٠.

أخطؤوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء الله؛ لأنهم لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره فضلوا بذلك عن دين الله^(٤).

وقد كان القانط من رحمة الله ضالاً؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئاً على قدرة الله، ومن علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه^(٥).

قال الرازي رحمه الله: «القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادراً عليه، وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالماً باحتياج ذلك العبد إليه، وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهاً عن البخل والحاجة والجهل؛ فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٥].

والمعنى الذي قاله إبراهيم عليه السلام، قاله أيضاً يعقوب عليه السلام لبنيه في قوله: ﴿يَبْنَئِ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ زَوْجِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

عرض القرآن الكريم لعدد من أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله؛ ومن هذه الأسباب:

١. الجهل بالله تعالى وسعة رحمته. من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئاً كثيراً^(١)؛ كما ذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بالولد مع كبر سنه وحال زوجه التي يستبعد معها حصول الولد: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾ ٥٥ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٥-٥٦].

فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته؛ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك^(٢)، لكنه قال ذلك على وجه التعجب والتفكر في عظيم قدرة الله ورحمته^(٣).

وإنما يقنط من رحمة الله القوم الذين

(١) المصدر السابق ص ٤٣٢.

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، ابن محمد بن عبد الوهاب ص ٤٤٩.

(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص ٧٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١١٣/١٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٣٢.

(٥) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/٢٠٤.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/١٥١.

إلى نفوسهم^(٦)؛ فأهل الشرك لما دعوا إلى الإيمان بالله قالوا: كيف نؤمن وقد أشركنا وزيننا، وقتلنا النفس التي حرم الله، والله يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، وأهل المعاصي من أهل الإيمان يقولون: كثرت ذنوبنا وتراكت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فييقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليهم الرحمن^(٧).

وفي نسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده^(٨)، ولكن لهذه الرحمة ونيلها أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم أيها المسرف إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم^(٩).

٣. عدم الصبر عند حصول المحن، والشكر عند حصول المنن.

الصبر خير كله، وهو أول صفات المؤمنين، ومن الصبر ألا يكفر عند النعمة،

فروح الله رحمته، وفرجه، وتنفيسه^(١)، وقد كان اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه: إما التكذيب بالربوبية؛ وإما الجهل بصفات الله تبارك وتعالى^(٢)، جهل بقدرته وسعة رحمته، وجهل لما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، أما المؤمن حقاً فلا تقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكرهه^(٣).

٢. إسراف العبد على نفسه في المعاصي والإفراط فيها.

فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة^(٤)؛ وهذا ما يلمح إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الخطاب في قوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا﴾ جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن الله عم بقوله: ﴿يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَرْفَوْا عَنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفاً دون مسرف^(٥)، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤ / ٤١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١ / ٣١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤ / ٤١.
(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٧.

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥ / ٣٣٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨ / ٥٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٣ / ٣٠.
(٤) انظر: القول السديد ص ١٢٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١ / ٣١٠.

فكان جزاؤهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(١) غفران ذنوبهم التي يزول بها عنهم كل محذور، والفوز بجنت النعيم، التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين^(٥).

وما تضمنته هذه الآيات من أن عدم الصبر عند حلول المصائب، والشكر عند حلول النعم من أسباب اليأس والفنوط من رحمة الله دلت عليه آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آفَافًا وَعَبَافًا﴾^(٢) [الإسراء: ٨٣].

فالنعمة تطفئ وتبطل ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، والشدة تئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو ويأمل، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل ويستبشر، ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان، وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء^(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمْشُوا مُسِيئِينَ﴾^(٣) [الروم: ٣٦].

فهم يفرحون بها فرح البطر الأشرف، الذي لا يقابل نعم الله تعالى بالشكر، ولا يستعملها فيما خلقت له؛ فالمراد بالفرح هنا: الجحود والكفران للنعم، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم، وإن أصابتهم مصيبة بسبب شؤم معاصيهم، وإهمالهم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٨.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٧.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤.
(٥) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤.

وآلا ييأس عند النعمة^(١)، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُونُ مِنَّا كَافُورًا ۖ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَةً بَعْدَ ضَرْاءٍ مَسَتْهُ لَيَكُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾^(٢) [هود: ٩-١١].

فإذا أعطي الإنسان نوعاً من أنواع النعم كرخاء عيش، وبسطة رزق، وصحة، وأمن، وولد بار، فكان شديد الاغتراب بها، ثم سلب تلك النعمة بما يحدث من الأسباب التي قدرها الله في الخليقة كالمرض والموت والعسر، فإنه يظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها فضلاً عما سلف منها؛ فهو يجمع بين اليأس مما نزع منه، والكفر بما بقي له؛ لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر^(٢).

ولذا استثنى تعالى الصابرين على الضراء وعاملي الصالحات، ومنها: الشكر على النعماء^(٣) من هذا الجنس بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ لأنهم إن نالتهُم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا^(٤)؛

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٧.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤.

(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.

(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤.

من مظاهر رحمة الله وآثارها

ما يفتحه للناس من رحمته وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم، لا يقدر أحد كائنًا ما كان أن يمسكه عنهم، وما يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائنًا من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين^(٢)، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

فخزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء: كن فيكون، وجود بها على من يشاء من عباده^(٣)، وعبر عن إرسالها بالفتح؛ إيذانًا بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً^(٤).

والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحه لهم رحمة المطر، كما قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخْرِجُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن

لشكر الله تعالى على نعمه أسرعوا باليأس من رحمة الله، وقنطوا من فرجه، واسودت الدنيا في وجوههم، شأن الذين لا يعرفون سنن الله تعالى في خلقه، والذين يعبدون الله على حرف، فهم عند السراء جاحدون مغرورون، وعند الضراء قانطون يائسون^(١).

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.

(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٤٢/٧.

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٨٧/١١.

ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه؛ وكل ذلك رحمة من الله له^(٤).

ومن إطلاق النبوة على الرحمة ما ذكره الله عن هارون عليه السلام وأن نبوته رحمة في قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ٥١ وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًا ٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ٥٣﴾ [مريم: ٥١-٥٣].

فالحبة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هارون؛ لأن هارون أكبر من موسى^(٥)؛ كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد أنه وهب له نبوته^(٦).

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعته في الدنيا أعظم من شفاعته موسى في هارون أن يكون نبياً، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]^(٧).

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مِمَّا أَتَتْهُمْ مِنْ تَذِيرِينَ

يُلَقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]^(١).

وقد عرض القرآن الكريم لعدد من مظاهر رحمة الله في القرآن الكريم، ومنها: ١. إرسال الرسل وإنزال الكتب.

إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه^(٢)؛ كما قال تعالى: ﴿أَمَّا مَنْ عِنْدَنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٦﴾ [الدخان: ٦].

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على النبوة في غير موضع، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥].

فالنبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾^(٣)، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٧١.

(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٠٣.

(٦) انظر: جامع البيان ١٨/ ٢١١.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٨.

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧١.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٥٣.

قَبْلَكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ [القصص: ٤٦].

فبعثة الرسول بما أوحاه الله إليه من الوحي رحمة من الله له ولهم^(١)؛ فثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة الله به للعباد^(٢).

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾^(٣) أَمْعَدَهُمْ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٨-٩﴾ [ص: ٨-٩].

فالنبوة عطية من الله عز وجل يفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين^(٣)، وليس الاختيار لهؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد؛ ولكنها بيد العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد، ما من الله به عليك من الكرامة، وفضلك به من الرسالة^(٤).

ونظير هذه الآية قوله تعالى^(٥): ﴿أَمْ هُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥٨٦/١٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦١٧.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢١٦/٧.

(٤) انظر: جامع البيان ١٥٥/٢١.

(٥) انظر: السراج المنير، الشربيني ٣٢٦/٣.

فأله يخص بالنبوة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين ولا بإرادتهم^(٦)، فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فأله أعلم حيث يجعل رسالته^(٧)؛ فإنه لا ينزلها إلا على أركى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً، وأطهرهم أصلاً^(٨).

وقد جاء في القرآن التنصيص على إن إرسال الرسل بالكتب إلى العباد رحمة من الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾^(٩) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ [الدخان: ٦].

فإرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسيله^(٩)؛ لأن

(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢٨/٤.

(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٤.

(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٢٦/٧.

(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧١.

لَرْحَمَةً وَذَكَرْنِي لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [العنكبوت: ٥١]؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية^(٥).

٢. رحمته بالرسل عليهم السلام.
الأنبياء عليهم السلام هم أكثر الخلق مسارعةً إلى الخيرات، وأصدقهم توجُّهاً وتذلاً لله تعالى؛ وأعظمهم رغبةً ورهبةً؛ وفي ذكر رحمة الله لهم، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه^(٦).

ومن ذلك الرحمة التي رحم الله بها عبده زكريا عليه السلام حين أسرَّ بدعائه إليه، كما قال تعالى: **﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾** [٢] [مريم: ٤] **﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾** [٣].

ثم فصل كيفية دعائه بقوله: **﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾** [٤] **﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوْتِ مِن وَرَائِي وَكَأَنَّ آمِرًا يَافِرًا﴾**

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٣.

(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٤٨٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٣.

الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٧] ^(١).

وأنزل الله الكتاب على نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة به وبالعباد، كما قال تعالى: **﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَاهِرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾** [القصص: ٨٦].

فالآية تذكير لنعمه تعالى على رسوله، وأنه تعالى رحمه رحمةً لم يتعلق بها رجاؤه^(٢)، فالاستثناء في **﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾** استثناء منقطع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يرجو أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له^(٣)، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين^(٤).

وقال تعالى أيضاً لنبيه صلى الله عليه وسلم: **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ**

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٨١.

(٢) انظر: البحر المحیط، أبو حيان ٧/ ١٣٢.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٩٤.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٥.

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ
آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ﴿٦﴾ [مريم:
٤-٦].^(١)

فمن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا
صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد
الشيم؛ فرحمه ربه واستجاب دعوته، فقال:
﴿يَنْزَكِّيَّا إِنَّا تَبَيِّرُكَ لِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ
نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧].^(٢)

فوهبه الله الولد الصالح مع كبر سنه
وعقم زوجته، فكانت ولادة يحيى تكريماً
ورحمةً بهذا النبي العابد.^(٣)

ومن ذلك أيضاً الرحمة التي رحم الله
بها عبده أيوب عليه السلام، كما قال تعالى:
﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [٨٣] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا
مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ
رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء:
٨٣-٨٤].

فقد ألطف أيوب في السؤال؛ حيث ذكر
نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية
الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين
الضر الذي مسه^(٤)؛ فأذهب الله عنه ما به

من الأذى، ورد عليه أهله وماله، ومنحه
الله العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً^(٥)؛
وكل ذلك رحمةً بأيوب إذ قال: وأنت أرحم
الراحمين.^(٦)

ووصفت الرحمة بأنها من عند الله
تنوياً بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب
المراد به التفضيل^(٧)؛ فهي رحمة تليق بذاته
الكريمة، وهو الرحمن الرحيم.^(٨)

وكون كشف الضر عن أيوب رحمةً من
الله به، فكذلك هو ذكرى؛ لنعتبر ونعلم أن
رحمة الله قريب من المحسنين، وأن مع
العسر يسراً، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج
بعد الشدة.^(٩)

٣. قبول التوبة وغفران الذنوب.

التوبة لا بد فيها من ترك الذنوب،
والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما
أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال
الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك فإن الله
يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب
ما قاموا به، مما أمرهم به^(١٠) كما قال تعالى:
﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٨.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٨.

(٧) انظر: المصدر السابق.

(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٩٠٧.

(٩) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ١٢٦.

(١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي
ص ٢٥٨.

(١) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ٣٤.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي
ص ٤٨٩.

(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن
الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٢.

(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.

بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات^(٤).

٤. عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

امتن الله على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه^(٥)، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والفضل والرحمة هنا: نعمة إنزال الكتاب تفصيلاً لوجوه الحق في الحكم، وعصمته من الوقوع في الخطأ فيه^(٦)؛ فيحفظه ويعصمه من قبول تدليس المبطلين، فلا تنطلي تضليلاتهم عليه، بل يوفقه الله ويحفظه من مؤامرتهم، وينور بصيرته، ويعلمه ما لم يكن يعلمه صيانة لأحكامه أن يصدر منها تبرئة مجرم، أو ظلم بريء^(٧).

ثم كرر الامتنان عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له^(٨)، فقال: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾، وهذه نعمة

عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهَا وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فبين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقلوه: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها^(١).

فرحمة الله جل وعلا وسعت كل شيء، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ ولا أحد أشنع قولاً من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفرية العظمى والوقوع في جناب الله جل وعلا بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة والمغفرة^(٢)، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

فالآية فيها التعجب من افتراءهم على الله وإصرارهم على ذلك بدون توبة من هذا الاعتقاد القبيح، وفيها التلطف بدعوتهم إلى التوبة، وأن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة يقبل توبة التائبين، فلذلك ختمها بقوله: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣)، يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٩.

(٥) المصدر السابق ص ٢٠٠.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩٧/٥.

(٧) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٢٥٨/٦.

(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤١٠/٢.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥٧/٧، العذب النمير، الشنيطي ٣٤١/١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٥٨/٣.

(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ١٩٤/٩.

كبيرة على رسوله صلى الله عليه وسلم تتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم^(١).

٥. إرسال الرياح اللينة بالغيث.

إجراء الرياح وانتشارها من ههنا وههنا أمام المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظام نعمه على خلقه^(٢)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا نَقَّالًا سَفْنَتَهُ لِيَلْكَرِمَتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُفْخِجُ الْمَوْتِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فإنه سبحانه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين في قوله: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]^(٣)، أتبعها بذكر أثر من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، وهو إرسال الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله^(٤).

٦. إنجاء المؤمنين وإهلاك المجرمين.

نزول العقاب بالكافرين ونجاة المؤمنين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠٠.

(٢) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٧٨.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٩٢.

يكون برحمة كريمة من الله، وحسبها شرفاً أنها من رب العالمين^(٥)؛ كما قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَّعْنَا دَايِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عن نبيه صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيثًا﴾ [هود: ٦٦-٦٧].

وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِيثًا﴾ [هود: ٩٤].

فنجاتهم جميعاً هم ومن آمن معهم وإهلاك أعدائهم كان برحمة من الله؛ وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في جميع المواضع التي وردت فيها؛ للتعظيم، ووصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها^(٦).

والباء في ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ يحتمل أن تكون

(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٧٢٠.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١٤.

وَيَسْتَخْرِجَا كُزَّهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَن أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾
[الكهف: ٨٢].

فإنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته
وتمام لطفه ورحمته أن قيض موسى
والخضر في مصلحة يتيمين^(٥)؛ حالهما
تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما
صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا
بصلاح والدهما^(٦)؛ وكان الذي فعله الخضر
لم يكن من تلقاء نفسه، ومجرد إرادته؛ وإنما
ذلك من رحمة الله وأمره، الرحمة التي ليس
بعدها رحمة، والحكمة التي ليس بعدها
حكمة^(٧).

٨. الوقاية من عداوة الشيطان
ووسوسته.

الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره
نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به
واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل
خير، وعصمه من الشيطان الرجيم^(٨)، كما
قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

- (٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن
الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٣٨٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي
ص ٤٨٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي
٥٦١/٨.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ١٩٠.

للسببية^(١)؛ حيث جعل إيمانهم سببًا ينالون
به رحمته فأنجاهم برحمته؛ ويجوز أن تكون
للمصاحبة؛ حيث الرحمة مصاحبة لهم إذ
كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى
انقضاء آجالهم^(٢).

وفي هذا ما يدل على التشبث بعرى
الإيمان ومتابعة المرسلين لينال العباد
بذلك الرحمة والنجاة من العذاب الدنيوي
والآخروي، والتحذير من مخالفة المرسلين،
وبيان أن ذلك سبب العذاب في الدنيا
والآخرة؛ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنبَيَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ [النمل:
٥٣].

ويقول: ﴿وَنَبَيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا
يَنْقُوتُونَ﴾ [فصلت: ١٨]^(٣).

٧. حفظ الصالحين وأولادهم.
العبد المؤمن الصالح يتولاه الله حتى
بعد مماته رحمة منه، وخاصة ما ترك من
الذرية^(٤)؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ
لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كُزٌّ لَّهُمَا
وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

- (١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣٢٩/٤، روح
المعاني، الألوسي ٩٢/١٢.
(٢) انظر: روح المعاني ٩٢/١٢، التحرير
والتنوير، ابن عاشور ٢١٤/٨.
(٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى
عسيري ص ١٤٨.
(٤) انظر: رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر
الغامدي ص ٢٤٠.

فاتباع الشيطان هم المحرومون من فضل الله ورحمته، فقدوا عصمة الله لعنادهم، وركوبهم أهواءهم، وإيثارهم رغبات أنفسهم على فطامها عما حرم الله، وجعلهم الخيرة لأنفسهم في سلوك مراداتهم من السبل دون سبيل الله، أما القليل الرافضون لهمزات الشيطان على اختلاف أنواعها، والمتقبلون هداية الله، والمؤثرون لمرضاته وسلوك سبيله على مرادات أنفسهم وشهواتها فهم الحائزون على فضله بعصمتهم من أي شيطان، ورحمتهم بثبيت قلوبهم، وهم الذين يأس الله منهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد اعترف إبليس أنهم لا من جنده ولا أتباعه بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

فعصمتهم من اتباع الشيطان هي بفضل الله ورحمته^(١).

وهذه الآية كقوله تعالى^(٢): ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

فالشيطان يأتي النفوس من قبل أهوائها

- (١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ١١٤/٦.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٤٥.

وشهواتها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، ولكن الله تعالى لا يترك عباده جميعاً تحت غواية الشيطان الرجيم؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، فهو يجتبي من عباده من يزيه ويطهره في قلبه ولسانه ونفسه، ولا يشاء الله تعالى لعبده تلك الطهارة إلا إذا سلك سبيلها، واختار طريقها، فيأخذه إلى ما اختار^(٣).

٩. المودة والرحمة بين الزوجين.

لا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين^(٤)، ومحبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما^(٥): ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فجعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزواج متجاهلين فيصبحان بعد التزواج متحابين، وجعل بينهما رحمة فهما قبل التزواج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة^(٦).

وجعل بينهما محبة ورأفة، فإن الرجل

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٦٣، وزهرة التفاسير، أبو زهرة ٥١٦٧/١٠.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٥.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٦١.

(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٧١.

إلا له، المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته^(٥).

يمسك المرأة إما لمحبه لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق^(١)؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة^(٢).
١٠. إمساك الطير حال الطيران.

من رحمانيته تعالى لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء^(٣)، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٌ وَيُقْبَضُ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

فالذي يحفظ الطير من السقوط بما أودع فيها من خاصية الطيران بالقبض والبسط هو الرحمن، وخص ذكره دون لفظ الجلالة (الله)؛ للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمته بهذه المخلوقات وبمن سخرت له، فرحمة الله بالمخلوقات بإمها لهم وعدم العجلة بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء من السقوط والهلاك^(٤).

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٩.

(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٢٨٠.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٧.

موقف الخلق من رحمة الله

رحمة الله مبذولة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولا يهلك على الله إلا هالك، وقد انقسم الناس تجاه هذه الرحمة إلى طرفين وواسطة، ولكل عرض القرآن الكريم.

أولاً: الآيسون القانطون من رحمة الله:
والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

١. إياس الكفار منها، وتركهم الأسباب التي تقربهم منها^(١).

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَسُوءُ مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

فأخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل الماضي؛ تنبيهاً على تحقيق وقوعه، والمعنى: أولئك سيأسون من رحمة الله لا محالة^(٢)؛ لأنهم لم يعلموا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالاً^(٣).

قال القرطبي رحمه الله: «اليأس من

رحمة الله؛ فيه تكذيب القرآن؛ إذ يقول وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهو يقول: لا يغفر له؛ فقد حجر واسعاً؛ هذا إذا كان معتقداً لذلك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّكَ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]^(٤).
٢. إياس العصاة^(٥).

فيقوى خوف العبد بما جنت يده من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فيأس من الرحمة^(٦)؛ وهذا ما يلحق إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ أَشْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانياً: الذي يتكلون على عفو الله ومغفرته ورحمته:

الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله^(٧)؛ فيسترسل في المعاصي ويتكل على رحمة الله من غير

(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٦/ ٢٦٥.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٩.

(٦) انظر: القول السديد، السعدي ص ١٢٢.

(٧) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ١/ ٥٦.

(١) انظر: المصدر السابق ص ٦٢٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٤.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٢٩.

ثالثاً: الذين جمعوا بين الخوف من عذاب الله، وبين الرجاء لرحمة الله:

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَانَاءَ الْآيِلِ سَاجِدًا وَّاقِيًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً^(٦).

فللخوف مزيتة من زجر النفس عما لا يرضي الله، وللرجاء مزيتة من حثها على ما يرضي الله، وكلاهما أنيس السالكين^(٧).

وقد وصف الله عبده في الآية الكريمة بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته^(٨).

فالمؤمن إذا خاف لا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٤٥٧/٢.

(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/٣٤٧.

(٨) انظر: المصدر السابق ٢٣/٣٤٦.

عمل^(١)؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فإذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلاً يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر الله، وهو مسترسل في معاصيه اتكالاً على عفوه ومغفرته ورحمته؟^(٢)، فهذا هو الغرور والتعني والرجاء الكاذب^(٣).

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفاً وجللاً أن يتلى ببليّة تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)^(٤)، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة^(٥).

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٦٥/٦.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/٢٦.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٤٥٦/٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي في سننه، ٤/٤٤٨، رقم ٢١٤٠، عن أنس رضي الله عنه.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١٣٢٣/٢.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٨.

القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور^(٥).

ولذا جاء عن بعضهم قوله: من عبده بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجعي، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد^(٦).

موضوعات ذات صلة:

الجنة، الحساب، السعة، العذاب، العفو، الهداية، اليأس

مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة^(١)؛ لأن الرجاء يتبعه السعي لتحقيق المرجو، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فإن تقرب المرء المنفعة من غير أسبابها فذلك التقرب يسمى غرورًا^(٢).

ومن الآيات التي مدح الله فيها أهل الخوف والرجاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف^(٣)؛ وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنهم في موقف الأدب مع ربهم؛ فلا يزيدهم القرب من رضاه إلا إجلالاً له وخوفاً من غضبه^(٤).

وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص ٤٤٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/٣٤٧.

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص ٤٤٦.

(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٥/١٤٠.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٠.

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/٤٥٨.